Studies in Islamic Historiography. Essays in Honour of Professor Donald P. Little, edited by Sami G. Massoud

Leiden, Brill
2020, 270 p.
ISBN : 978-90-04-41529-4.

Mots clés : Donald Little, historiographie, islam

الكلمات المفتاحية: دونالد ليتل، الكتابة التاريخية، الإسلام

رغم أن *Mamluk Studies Review* (مجلة الدراسات المملوكية) سبق أن خصَّصت أحد أعدادها للاحتفاء بالمؤرِّخ الكبير دونالد پ. ليتل (Donald P. Little؛ ١٩٣٢-٢٠١٧)، الذي كرّس معظم حياته العلمية، خلال عمله كأستاذ بجامعة ماك جيل (McGill University) بمونتريال (كندا)، لدراسة التَّاريخ الإسلامي، وعلى الأخصّ تاريخ المماليك في مصر والشام، وخلَّف أعمالاً مهمةً في هذا المجال، إلى جانب إشرافه على العديد من الرسائل الجامعية في موضوعات تناولت التاريخ الإسلامي منذ عصره المبكِّر حتى الإسلام في إندونيسيا، فقد رأى تلاميذُه وأصدقاؤه أن يُهْدُوا إليه كتاباً يشتمل على مواضيع متنوِّعة في مجال التَاريخ. ووقع اختيار محرر الكتاب، سامي ج. مسعود (Sami G. Massoud)،على موضوع «الكتابة التَّاريخية عند المسلمين» (islamic historiography) – وهو موضوعٌ منحه دونالد ليتل الكثير من اهتمامه العلمي بدءً من كتابه «مدخل إلى الكتابة التَّاريخية المملوكية» (*An Introduction to Mamluk Historiography*).

ويجمع الكتاب تسع دراسات كتبها طلبةٌ سابقون للمحتفى به تكريمًا لإنجازه الطويل وانقسمت إلى ثلاثة أقسام. اشتمل القسم الأول، الذي حمل عنوان «الكتابة التّاريخية الكلاسيكية»، على أربع دراسات، أولاها لمايكل وود (Michael Wood) عن «الاستمرار والتغيُّر في تاريخ عَمّان المبكِّر»، والثانية لهيتر امپي (Heather J. Empey) عنوانها «المؤرِّخون المشارقة والاضطهاد الموحِّدي لليهود والنصارى: مصادر جديدة حول جَدَلٍ قديم»، والثالثة لفريديك بودان (Frédéric Bauden) عن «المقريزي وتاريخه المُقَفَّى الكبير. تحقيق حول تأريخ العمل»، والرابعة لمراد جم منجوق (Murat Cem Mengüç) عن «جَمْع الماضي معا: الوصف الأحمدي للتاريخ العثماني ونصَّان متأخِّران».

واشتمل القسم الثاني، وعنوانه «التاريخ السِّرِّي»، على ثلاث دراسات، الأولى لشفيق ن. ڤيراني (Shafique N. Virani) بعنوان «تأسيس التفسير الرمزي في أساس التأويل للقاضي النعمان: ميلاد يسوع»، والثانية لدريل ن. ماكلين (Derryl N. MacLean) بعنوان «تشكيل تأريخ الألفية في جنوب آسيا الفارسية: سيرة بنداجي ميان شاه عبد الرحمن»، والثالثة لهيوندو پارك (Hyondo Park) بعنوان «من بربري فارسي إلى حكيم متفوِّق على الحكماء الصينيين: صورة النَّبيّ في "شينجزان" لما زهو».

أما القسم الثالث، وعنوانه «وجْهات نظر»، فقد اشتمل على دراستين، الأولى لريم ميشال (Reem Meshal) بعنوان «الحياة الموثّقة: ظهور قانون مدني للمواطنين الأصليين في القاهرة العثمانية»، والثانية لپاتريشيا ريسّو (Patricia Risso) بعنوان «جغرافية الكتابة التاريخية: غرب آسيا كإقليم فرعي للمحيط الهندي».

وواضح من هذا العرض أن الغالب على هذه الدراسات تناولُ موضوعات تاريخية عامّة لا تتَّفق مع عنوان الكتاب، وأن بعض دراسات القسم الأول فقط تناولت الكتابة التاريخية كما تناولها دونالد ليتل في كتابه الرائد *An Introduction to Mamluk Historiography*، وعلى الأخصِّ دراسات مايكل وود وفريديك بودان و هيتر إمپي. تناول وود في مقاله فتح العرب لعَمَّان سنة ٩ هـ/ ٦٣٠ م، مع تحليل أصل المصادر التاريخية التي تناولت الموضوع خلال التاريخ الإسلامي المبكِّر، وعلى الأخص السيرة النبوية والعصر البطولي للإسلام، حيث لا نمتلك مصادر أصلية تعود إلى هذه الفترة وتسجِّل أحداثها. ويستشهد على ذلك بما كتبه ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) في مقدمة السِّيرة التي خصَّصها للنَبِيّ ﷺ، من أن أقدم النُّصوص التي وصلت إلينا عنها ترجع إلى ١٢٥ سنة بعد وفاته، وكُلُّها مصادر شفهية يستشهد فيها أصحابها بروايات أقدم يدَّعون أنها تعود إلى شهود عيان على الأحداث؛ لذلك فإن أي معلومات يمكن جمعها عن هذه الفترة قد خضعت لعملية ذات مستويين أو حتى ثلاثة مستويات من الرِّواية. ودلَّل على ذلك بـ السِّيرة النبوية لمحمد بن إسحاق، المتوفَّى سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م، حيث اعتمد على الأخبار التي أوردها قبله كلٌّ من عُرْوَة بن الزُّبَيْر، المتوفَّى سنة ٩٣ هـ/ ٧١١ م، وابن شهاب الزُّهْـرِي، المتوفَّى سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م، ثم أضاف إليها، إلَّا أن ما وصل إلينا من سيرة ابن إسحاق هو تهذيب للسِّيرة قام به عبد الملك بن هشام، المتوفَّى سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م أو ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م.

ولا يتناول وود هذه المرحلة المبكِّرة من الإنتاج التاريخي، لكنه يدرس ما يمكننا أن نسميه الموجة الثانية من المؤلَّفات التاريخية، تلك التي كُتِبَت في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وأوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وتُشَكِّل هذه التواريخ ذروة الكتابة التاريخية في العصر الإسلامي المبكِّر ممثَّلة في مؤلفات أحمد بن يحيى البَلَاذُري، المتوفَّى سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م ومحمد بن جرير الطَّبَري، المتوفَّى سنة ٣١٠ هـ/ ٩٢٣ م. وتعكس حَوْليات هذين المؤرِّخين، وكذلك روايات الجغرافيين التي استخدمها وود، إلى حد كبير المعرفة المتاحة في ذلك الوقت حول هذا الموضوع. وانصبَّ اهتمامه على ما إذا كان هناك توافق بين هذه المصادر والأدلَّة الأثرية في ما يتعلق بتأكيدات المستشرقين المتكرِّرة على تدمير واختفاء الحياة المدنية في المدن البيزنطية في الشَّام عقب الفتح العربي.

وحقيقة الأمر أن المسلمين الأوائل درسوا «التَّارِيخ»، وعلى الأخصِّ السِّيرَة النَّبَوِيّة والمَغَازِي، من خلال انشغالهم بـ «علم الحَديث ومُصْطَلَحه»، الذي أمدَّهُم بأهم أدوات دراسة التارِيخ المنهجية، وهي «الإِسْناد». فلا شك أن مَنْهَجَ جَمْع المعلومات التَارِيخية الذي اتُّبع في هذا الطوْر لم يختلف عن المنهج المتَّبع في تدوين الحديث وكذلك في كتابة المَغَازي، أي جمع الرِّوَايَات الشَّفَوِيّة التي رواها الأفْرَاد الذين عاصروا الأحداث أو الوُسَطاء الذين نقلوها عنهم.

أمَّا هيتر امبي فتقدم للقُرَّاء تقليدين تاريخيين أُنتجا خلال فترات مليئة بالأحداث في التاريخ الإسلامي، من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهي في المشرق هزيمة الصليبيين، وحكم صلاح الدين والمماليك والهجوم المغولي، وفي المغرب الإسلامي صعود الحركات الطائفية بين البربر، وعودة حركات الاسترداد. وهي تقوم بذلك في إطار لغز تاريخي غريب يتعلّق بإلغاء الخليفة الموحِّدي في شمال أفريقيا عبد المؤمن بن علي الكومي (٤٨٧-٥٥٨ هـ/ ١٠٩٤-١١٦٣ م) لعهد الذِّمَّة الذي أعطى المسيحيين واليهود وضع الأقليات المحمية. والغريب أن مصادر أُنتجت في المشرق الإسلامي هي التي ذكرت هذا الحدث الذي وقع في المغرب الإسلامي بينما تجاهلته المصادر المغربية. وتفسير ذلك أن الكتابة التاريخية بدءً من العصر الأيوبي وطوال العصر المملوكي في المشرق الإسلامي مثَّلت عصر التاريخ العالمي من خلال كتابات ابن الأثير وسبط ابن الجوزي والذَّهبي والمقريزي وابن تغري بردي وآخرين غيرهم.

وإذا انتقلنا إلى مقال فريدريك بودان نجد أنه ألصق مقالات الكتاب بموضوع الكتابة التاريخية من خلال دراسته لمؤلَّف شيخ مؤرِّخي مصر الإسلامية، تقيّ الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفَّى سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م، الذي خصَّصه لتراجم مَنْ دخل مصر أو أقام بها حتى منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي: «التَّاريخ المُقَفَّى الكبير». وقد تتبَّع نسخ الكتاب وتوزُّعها في المكتبات، وهي أقسام من نسخة غير كاملة بخط المؤلف (holographe)، موزعة بين المكتبة الوطنية الفرنسية ومكتبة جامعة ليدن، إضافة إلى نسخة من أول الكتاب، نقلت عن الأصل المحفوظ بجامعة ليدن (apographe)، بمكتبة أحمد الثالث الملحقة بمتحف طوب قابي سراي بإستانبول. ودرس الشكل الكوديكولوجي لهذه النسخ وتتبع مصادر المؤلف وهي مصادر متنوِّعة تغطِّي تاريخ مصر الإسلامية منذ ابن عبد الحكم وابن يونس الصَّدَفي مرورا بابن زولاق والمُسَبِّحِي والقُضَاعِي وابن مُيَسَّر وابن عبد الظَّاهِر وابن أيبك الصَّفَدِي وحتى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وهي بذلك دراسة متكاملة عن الكتابة التاريخية عند المقريزي من خلال مؤلَّفه «التَّاريخ المُقَفَّى الكبير».

هذه هي المقالات ذات الصِّلة المباشرة بموضوع الكتاب، الكتابة التاريخية، بينما تناولت المساهمات الأخرى موضوعات بعيدة عن المصادر التاريخية العربية ذات صلة بأطراف العالم الإسلامي في تركيا وإيران وجنوب شرق آسيا.

أيمن فؤاد سيِّد،
المعهد الفرنسي للآثار الشرقية